مقدمة

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

في سنة ١٩٩٠م صدر كتابي (آلهة مصر العربية) وفيه معجمان صغيران بالهيروغليفية مع الترجمة الإنكليزية مأخوذان عن الأستاذين (بدج) و(غاردنر) وقمت بترجمة النصوص المختارة إلى العربية كما وضعت المكافئات العربية التي رأيتها للمفردات المصرية القديمة، ووعدت في الوقت نفسه بإصدار معجم مصري/عربي مقارن (ص ٦٩٩).

مرت الأيام والشهور والأعوام سراعًا. وكنت شرعت في إعداد ما انتويت قبل صدور الكتاب المذكور بحولين. خمسة عشر عامًا مضت، وقد شغلتني شواغل أخرى كثيرة، ولم يتسنَّ لي الوقت الكافي لإتمام ما بدأت حتى يسر الله العودة إلى ما عزمت عليه، وها أنا ذا أقدمه إلى عامة القراء، وخاصتهم، آملا أن يسهم هذا العمل في إزالة بعض من الغبش الذي غطى صورة الصلة الوثيقة بين لسان أهل وادي النيل الأقدمين وبين اللسان العربي المبين، فتثبت عروبة مصر التي أراد لها البعض أن تحسب منعزلة عن محيطها منفصلة عن جيرانها، بل أهلها، وتوهموا، كما أوهموا سواهم، أن ما يُدعى (الحضارة الفرعونية) نبتت وازدهرت بمعزل عما حولها وتميزت، أو امتازت، عن غيرها.. هكذا دون تأثر أو تأثير أو حتى دون فعل وتفاعل أو انفعال. هذه الصلة الوثقى بين حضارة وادي النيل العتيقة وما جاورها من شعوب وأقوام تثبت وتتأكد عن أهم وسيلة للإثبات والتأكيد.. أعني اللغة؛ إذ يمكن القول بنقل، أو استعارة، مظاهر الحضارة كلها، أو جلها، من قوم عن قوم، والزعم بأن شعبًا أخذ عن شعب آخر مظاهر الحضارة المادية، وفي أحيان أخرى أخذ أشياء من الظواهر الثقافية المعنوية في مختلف صورها وأشكالها، إلا اللغة؛ فإنها تمثل كينونة الأقوام وذاتية الشعوب، وبها تعرف صلات الأمم بعضها ببعض - خاصة في الأزمنة العتيقة المعنة في القدم، حيث تكون هذه الصلات طبيعية دون عامل خارجي يفرضها فرضًا أو عامل من العوامل السياسية أو الاقتصادية يدعو إلى أن تتخذ جماعة ما لسان جماعة أخرى بدلا من لسانها أو تستعير جملة، تكبر أو تصغر، من المفردات والمصطلحات والتعابير العلمية أو الدينية

www.alkottob.com

أو الفكرية، إما لنقص لديها في القدرة على التعبير أو تأثرًا من المغلوب بالغالب يقلده ويحتذيه.

اللغة كائن حي متطور. هذه مقولة صارت مسلَّمة. يبدأ - مثل سائر الكائنات - خلية تنقسم، ثم تتلاقح وتتكاثر شيئًا فشيئًا وتنمو مع نمو الإنسان وتطوره عقلا وحياة حتى تبلغ أشدها، وقد تستمر في الحياة عصورًا متطاولة بسبب ظروف معينة، ولكنها تهرم وتموت مهما طال بها الزمان. فإذا شئنا معرفة صلة لغة بأخرى فإن أفضل سبيل لذلك هو البحث في الجذور الأولى لأي منهما، أو لكل منهما، أعنى في مفردات الحياة البَدْئية وما يحتاج إليه الإنسان في عيشه وفي تعامله مع محيطه الطبيعي ونمط سلوكه الذي تفرضه عليه بيئته والمكان الذي يوجد فيه؛ إذ لو سلمنا جدلا باقتراض لغة من أخرى ألفاظًا تدخل في عالم المعرفة العلمية والشعائر الدينية والمذاهب الفكرية أو الفلسفية، لسبب من الأسباب، فليس من المعقول القول بأن نفس اللغة انتظرت هذا السبب أو ذاك لتستعير لفظًا يعبر عن الحاجات الطبيعية الأولية، من مأكل ومشرب أو تسميات ما في البيئة من مسميات، أو الحالات التي تمر بالإنسان ويريد التعبير عنها كالألم والفرح والحزن والسعادة والمرض والصحة والولادة والوفاة والحياة والموت.. إلخ. إن الإنسان لا ينتظر أن يأتيه آخر ليأخذ عنه أسماء الماء والنار والشجر والبحر والأرض والسماء والتراب والنهر والشمس والقمر والبرد والجبل والوادي وغيرها من الظواهر الطبيعية. كما أنه لن يصبر حتى يقترض أسماء الحيوان لديه، كالقط والفأر والحمار والحصان والطير والسمك والأسد والنمر والثعلب والذئب والنعجة والكبش والعنز والدجاجة والديك وسواها من الأسماء. وهو لابد - منذ البداية - أن يجد أو يوجد الكلمات المعبرة عن الجوع والعطش، وعن السكن والرداء، وأضدادها؛ الشبع والري والعَراء والعُري؛ لأنها حاجات بشرية ضرورية. كذلك لا مناص من أن يعبر عن العلاقة الأسرية وأفراد الأسرة: الأب والأم والابن والابنة والزوج - ذكرًا وأنثى - على الأقل، ثم العم والخال والجد والجدة والأسلاف والأهل والأقارب، لأن الإنسان «اجتماعي بالطبع» ولا بد له من وسيلة توضح علاقاته تلك بمن حوله من الأقربين. وهذا ما ينطبق على مرحلة أكثر تطورًا في الحياة الإنسانية، إذ تتعقد العلاقات وتتشابك الصلات، وبعد مرحلة التقاط الثمر البدائية تأتي مرحلة صيد الحيوان، وبعد

www.alkottob.com

أن كان الإنسان مخلوقًا نباتيًّا تحول إلى آكل للحم أيضًا، وهنا قد يتبادل مع غيره ما زاد عن حاجته من الطعام - نباتًا أو حيوانًا - فيضطر إلى أن يحصي ما أعطى وما أخذ، فيعبر عن الواحد ثم عن الاثنين فما هو أكثر. وقد يتوقف تصوره عند العدد «خمسة» مثلا - كما هو حال بعض الأقوام البدائية - وقد يزيد، بحسب تطوره وتصوره، في التعبير عن أعداد كبيرة جدًّا كالمليون وما بعد المليون.

وإذا كان من المقبول والمعقول القول باستعارة تسمية العدد (مليون) مثلا في مجتمع ما من مجتمع آخر فإنه من غير المعقول ولا المقبول زعم الاستعارة ذاتها في الأعداد: واحد، اثنان، ثلاثة - على الأقل؛ لأن العدد «ثلاثة» مثلا هو ما يعبر به عن الأسرة المكونة من أب وأم (زوج وزوجة) ثم من مولود واحد، على الأقل أيضًا، ذكرًا كان أو أنثى.

اللغات واللهجات:

هذه «الأساسيات» - وهناك أمثلة أخرى كثيرة - إذا اتفقت، أو تقاربت، ما بين لغة وأخرى عُدّت دليلا قاطعًا على أن ثمة علاقة بين هاتين اللغتين تزداد وضوحًا كلما مضى البحث قُدمًا في المقارنة بينها واكتشاف الرابط الذي يربطها لفظًا ودلالة ومعنى واستعمالا. وهذا ما ينطبق على دراستنا المقارنة ما بين اللغتين المصرية القديمة والعربية العدنانية أو المُضَرية، لغة الجزيرة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وانتشرت بفضله وبانتشار الإسلام على طول الوطن العربي الكبير وعرضه. ولا يمتنع - مع هذا - إدراك الصلات بين هاتين اللغتين معًا، أو كلّ على حدة، ولغات الوطن العربي القديمة في مختلف أقطاره، بحكم النشأة الأولى من جهة وبحكم الصلات المستمرة على مدى التاريخ من جهة أخرى، ولا ننسى هنا أننا نستعمل مصطلح (لغة) ليس باعتبارها منفصلة عن غيرها مما جاورها أو أحاط بها، بل بمعنى (لهجة)؛ فإن التدقيق والفحص يبينان لنا أن ما نسميه «لغات» هي في الواقع «لهجات» من (لغة أم) واحدة، وإن اضطررنا - بحكم الاصطلاح والعرف - أن نسمي الآن كلا منها «لغة»؛ فقد كان علماء العربية في معاجمهم وبحوثهم يقولون «لغة هذيل»، و«لغة تميم» و«لغة طيئ» على سبيل المثال وهم يعنون «لهجة» أي من هذه القبائل العربية في شبه الجزيرة.

www.alkottob.com